

الإعلام بين

التنحل الاصطلاحي والتخبط الإجرائي

التنحل فى اللغة: ادعاء الشئ بالباطل، وهو نسبة الشئ أو الصفة الغيرية وادعاء خصوصيتها للنفس كذبا ومدالسة، وقد وقع تعددا أو خطأ الإعلام العربى عامة والمصرى خاصة فى هذه المدالسة وهذا الخطأ الفادح، الكفيل بحرق أى مقدمات للتقدم والنهوض علاوة على كوارث التنحل الإعلامى فى تشويش ذهن المتلقين للرسائل الموالسة لهذا التنحل وخطورته على السلم الفكرى والعقلى والنفسى والإجتماعى والإقتصادى للأوطان. فأن ينتحل تاجر صفة خبير اقتصادى، ويرسل معطيات رسائله على الهواء لأناس ليس لهم ذنب إلا تصديق تلك المحطات. كارثة مؤسسية وقانونية ومهنية. فمثل هؤلاء الأشخاص حتى وإن كانوا شيوخا للتجار، ليسوا بأي حالا من الأحوال خبراء فى ذلك العلم العميق والمتشعب والراسخ. مثل هذه الرسائل غالبا ما تعطي معلومات مغلوطة يصدقها المتلقى نظرا لشهرة أو نجاح أو ثراء المرسل. وغالبا ما يتحدث المتنحل من خلال تجربته الشخصية ويحاول تعميم تجربته الذاتية على عموم القضايا، رغم كونها لا تتعدى حالة فردية ربما نجحت بفعل ذكاء شخصى أو مصادفة بحتة. أما لأن تنتشر مثل هذه التجارب بين الناس وتخلق فكرا عاما بأن الإقتصاد هو ذلك العلم الذى يقدمه ذلك الخبير المزيف، وعليه لن يقتنع الناس وسيقفون بالمرصاد لأي مشروع إقتصادى علمى مقدم من خبراء

حقيقيين. فالكارثة ليست فى عرض تجربة نجاح. لكن فى عرض أفكار ليس لها علاقة بالعلم والواقع العالمي لحركة الإقتصاد واعتبارها نموذجا على الرغم من محدودية التجربة الذاتية خاصة ذلك المدلس، والتي لن تنجح معك كمشاهد مقتنع بذلك الهراء. فالتجربة الذاتية محكومة بقدرات شخصية وظروف زمنية وواقع اجتماعي لن تتوفر لك شبيهاتها مهما حاولت التقليد. فلكل تجربة خصوصيتها وعلى هذا النهج قدمت الفضائيات العربية مجموعة من المتحليين والمدلسين بوصفهم خبراء فى السياسة أحيانا والطب أحيائين أخرى ومرات فى العسكرية ورابعة فى الدين ولم تنجوا الفضائيات التي يسمونها المتأسلمين "الفضائيات العلمانية أو الليبرالية" من هذا القىء الإعلامي، ولم تنجوا أيضا الفضائيات التأسلمية على حد وصف المتعلمين لهم، من ذلك الخراء الانتحالي والتدليس المتعمد على المشاهدين. قبل أن نلج فى تلك الممارسات التي أقل ما توصف بالحقيرة. فاللوم هذه المرة ليس على المتلقي مهما كانت درجة ثقافته ووعيه. فالمتلقي لن يسعى خلف مئات الرسائل والخبراء المزيفين الذي يتعرض لهم فى اليوم الواحد وإلا فإن فكرة البحث والتقصي التي عرضتها من قبل، تعتبر دعوة إلى تبديد الوقت وترك العمل والسعي فقط خلف تحري صحة مطروح وسائل الإعلام. الفهم بهذه الطريقة خاطئ وربما الطرح نفسه يوظره الغموض. ففكرة البحث والتقصي عن صحة الرسائل يكون فى القضايا العامة والتي تشغل رأي المواطنين وتأخذ منه حيزا كبيرا، أما التقصي فى مئات الرسائل فعبثا يفعل المتلقي. يقع عليك كمتلقي

مهتم بقضية ما أو كنت مريضا يتابع طبيباً فضائياً أن تتحرى عنه قبل تعاطي الدواء. لكنني لا أحملك من المسؤولية سوى ذراتها فالمسؤولية بأكملها تقع على عاتق مؤسسات الدولة المنظمة لإداراتها، فلأن تكتشف بعد أربع سنوات من تناول أعشاب طبيعية وبول بغير و"زبل" إبل حتى أصابك الاستسقاء وتضخم الطحال وسرطان الكبد، وفي النهاية تكتشف أن الدكتور المعالج على المحطة الفضائية كان خريج كلية التربية الرياضية. الآن لسنا بصدد دولة على الإطلاق. نحن نتعامل مع سوق للمشاة. يدخل من يدخل ويخرج من يخرج، وإذا ما رفسك حمار أو نطحتك بهيمة فلا دية لك. لذلك كان طرح مشروع ميثاق الشرف الإعلامي بمغل عن المشروع الوطني محض هراء وافتعال ودعاية.

تعد قضية التحل الحسنة الوحيدة التي فعلها التلفزيون الحكومي المصري وكان واعياً بخطورة مثل هؤلاء الأدياء. لكن الكارثة الحقيقية أن تسمع من عوام الناس أن التلفزيون الحكومي كافراً لأنه يرفض دخول الشيخ "س" وقام بطرد الإمام "ج" على الرغم من أن الأول راسب دبلوم تجارة والثاني تاجر خرقة مشهور. هناك استحالة في أي دولة حقيقية في العالم المتحضر أن تسمح لأي شخص غير مؤهل بممارسة علم ما. فلا يعقل أن مدرس يفتح عيادة طبية، ولأن الدين علم وليس مجال. فقد اقتضت الضرورة بأن يكون المتصف بصفة العالم قد اجتاز مراحل علمية معروفة ومعتمدة وقد تم التصريح له بمزاولة العمل. ربما يحيلنا التفكير الرجعي للمهوسين دينياً إلى قضية الدين والشهادات المعتمدة.

فهناك من يرى أنه بمجرد أن جلس إلى شيخ تحت بئر سلم لمدة
زمنية معينة، حصل خلالها بعض المعارف والقشور التي تسمح له
بالحديث على شاشة ما، أنه أصبح عالما. إن مقتضيات العلم
والعقل والدين ذاته ترفض مثل هذه الممارسات الجنونية. فالعالم من
تعلم وعلم حتى صار خبيرا في مادة العلم. وننحي العلم جانبا
ونستعرض بعض النماذج على عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم، كي نتأكد أن ذلك التحل كارثة دينية قبل أن تكون كارثة
علمية وعقلية ومعرفية. السؤال المطروح: كان بن عباس حبر الأمة
والإمام على باب مدينة العلم وعائشة من الرواة الثقات وعالمة
جليلة. ألم يكن مع هؤلاء جميعا شهادات علمية من مؤسسة دينية
موثوق فيها ومعتمدة تماما؟ الإجابة لا تحتاج جهدا، إذا ما أقررت
بأن المؤسسة الدينية الوحيدة المعترف بها في ذلك التاريخ، هي
مدرسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، لذا قال لابن عباس:
اللهم فقهه في الدين، وقال عن الإمام على: أنا مدينة العلم وعلى
بابها، وقال عن السيدة عائشة: خذوا نصف دينكم عن هذه
الحمراء. أليست هذه شهادات معتمدة وموثقة، تفيد بضرورة اتباع
سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن التواريخ تغيرت وشكل العالم ومؤسساته، لذا كان من الضروري
أن يخضع الطالب للعديد من المراحل التعليمية المصحوبة باختبارات
جدية حتى يصبح عالما. وقد خضع لها مع الحادثة من هم يفوقون
ويتفوقون أدعياء الفضائيات، كالإمام الشعراوي والإمام عبد الحليم
محمود والشيخ عطية صقر وغيرهم من كبار العلماء المشهود لهم

بالعلم والكفاءة ولم يستكبر واحد منهم على الخضوع للاختبار ولمن لم يقرأ التاريخ فليراجع سيرة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وهل جلس للفتوى دون شهادة معتمدة أم حصل على الشهادة من مؤسسة رسمية؟ إن تلفيق الحقائق والتاريخ والدين لصالح الأهواء والأغراض الشخصية والحاكمية كارثة على المجتمعات. أفرز ذلك الجهل بالإصطلاح مجتمعا منحلا متخلفا متفسخا ليس له مساحة على الخارطة العالمية، وجلسنا لمشاهدة السقوط بإسم الدين، فكان هذا الحال المتردي نتاج خطاب ديني فضائي غث، وقد شاركه خطاب علماني وقح، لا يقل جهلا وتخلفا وحمقا عن الخطاب الديني. فقد مارس العلمانيون والليبراليون نفس التجربة المنحطة، واستضافوا على شاشاتهم سقط شجر المعرفة كخبراء فى السياسة وتحليل المضمون وأدعياء المعرفة بوصفهم خبراء الدولة، إذا ما كان هناك دولة بهذا الوصف وهذا الإرتجال وتلك العشوائية.

الكوارث واحدة وإحالة هذه إلى الدين وتلك إلى العلمانية، محض دعاية تلفيقية لتمرير مشاريع ذاتية، فلا هذه بالدينية ولا تلك بالعلمانية، وما بينهما شعوب مقهورة معرفيا. تسعى إلى تصديق أن الفنون والآداب حرام، تلك الفنون الوحيدة القادرة على بناء الصور الذهنية وإطلاق الخيال لصالح الأوطان. وأيضا التصديق بأن بيتري وكارتر وبيلزوني كانوا من أعظم المكتشفين للحضارة المصرية القديمة. من يعيش بهذه الطريقة فى التفكير ماذا ننتظر منه إلا تكفير من يخالفه. وسباب من يحاوره، ومعارضة كل جديد بدعوى البدعة والضلالة وما شابه من إصطلاحات لم يدرسها كي يقف

على حدود المقصود منها، وقد تجاهل تماما أن المصلح مناقض لمصطلح آخر ودافع لجذله من باب السنن الحسنة الداعية إلى الإبداع الحسن. وهذا العوار المطروح مع رسائل الفضائيات المتأسلمة، كان موازيا له عوار رسائل القنوات الليبرالية، في الإشادة بالآخر وقبوله بكل ما له وما عليه، دون نقد التجارب وقراءة الهوية الوطنية والوقوف على محددات المشروع النهضوي الحالمين به. ولا تخل تلك الفضائيات بأنواعها، ربما أيضا تجاوز التليفزيون الحكومي الغارق في غيبوبته الذاتية تلك الجريمة المهنية، وهي أن يخلط مقدم البرنامج بينه وبين الضيف الخبير، وبين كونه مقدم برنامج يعمل طبقا لمعطيات الإعداد البرامجي و"سكريبت" مجهز مسبقا، وبين كونه خبير في المادة المقدمة. فعندما ترى مذيعا يجلس على الشاشة يوميا ويحدثك في كافة القضايا بوصفه خبير في كل المطروح، فهذا يعتبر تنحل لصفات متعددة، ولو أنه يعمل داخل دوله بمعناها المؤسسي لاتهم بالنصب والتحل على الفور. وأيضا نرى مقدم البرنامج يوجه الضيف عنوة ناحية وجهة نظره التي لا تمثل أي قيمة داخل البرنامج، من باب الشهرة والتشهير والاتصاف بالوطنية أو الشهامة أو الشجاعة. فالتقديم البرامجي فن وعلم بذاته. له أدوات وآليات معروفة لدي الباحثين. قد يتسائل البعض عن برامج بعينها ويراهها برامج محترمة وفيها يجلس الضيف في شكل برامجي معروف بالمحاضرة المصورة أو اللقاء المباشر، ويتحدث في موضوع ما وبطريقة رائعة ويقدم معلومات قيمة. إن مثل هذه النوعية من البرامج تسير في إتجاه

واحد، بمعنى أن من يقدمها يكون خبيراً فيما يقدم، كطبيب يقدم برنامجاً طبياً أو فنان يعرض رسائل فنية أو عالم فى القراءات القرآنية يقدم رسالة. فهذا الشكل البرامجي لا يتخطى المرسوم له، فلو أن الطبيب تجاوز وقدم رسالة فى الهندسة، فلابد وأن يحاسب على التثفل، وإذا ما تجاوز الفنان وحلل خطاباً سياسياً بوصفه محلل، يدخل فى ذات الإطار التدليسي، وكذلك عالم القراءات إذا ما دخل فى الإفتاء، أصبح نصاباً ممارساً لمهنة النصب. كي نتجاوز ذلك السقوط ونجيد معرفته لابد وأن نعرف أولاً معنى التقديم التليفزيونى وأدبيات التقديم والإعداد ووظائفه كمعارف تسهيلية لكشف السليم من المعيب.

الفهم قبل القانون، والوعي قبل العقاب، والمشروع الوطنى الشامل قبل ميثاق الشرف الإعلامى. النهضة تقوم على التكامل، والاجتزاء والعمل بنظام القطعة حال يدعونا للرثاء ودعوة للتخبط، ومقدمات كبيرة ستحيلنا إلى فشل عظيم. رؤية الأشياء من زاوية واحدة تضع فرص الرؤية من زوايا متعددة، ولا تمنحنا خيارات مختلفة وثرية. فما نهض وطن خالف مصطلحه إجراءه. فرققا بالوطن.